

الآتجاهات الحديثة
في الإسلام

للأستاذ

محمد حجة الأثرى

أوهيس

المطبعة السلفية - ومكنة

كَلِمَةٌ

بين يَدَيِ هذا السَّفرِ النفيسِ

الاتِّجاهُ الجماعيُّ في الإسلام ، من صميم الإسلام ، بل هو الإسلام
إن الإسلام - في ذاته - دينُ جماعة ، يقوم على تحرُّى السَّداد والمقاربة في
الحياة الدنيا ، وحياة الخلود

ولجماعات الإسلام قبلة واحدة يتمرَّنون على تحرُّى السداد بتحرُّيهم السداد
في الاتِّجاه إليها ، آناء الليل وأطرافِ النهار

والمجتمع الإسلامي رُسمت لاتِّجاهاته سُننٌ عُيِّنت ، ودُوِّنت ، وجُرِّب العمل
بها مائتي سنة ، فكان نجاحُ التجربة معجزةً من معجزات التاريخ الإنساني .
وهذه السنن - في جملتها وتفصيلها - نأخذ بأيدي أفراد المسلمين وجماعاتهم ودولتهم
إلى البدء - في كل شيء - من أول الخط المستقيم ، وتحرُّى الوصول إلى آخره
على الجادة ، وهم يدعون الله في كل يوم صرَّات وصرَّات : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
المستقيم ﴾

كانوا - أفراداً وجماعات ، رجالاً ونساء - يطلبون من ربهم ، في داخل
صلاتهم وخارجها - هذه المداية إلى الصراط المستقيم ، بقلوبهم قبل ألسنتهم ،
وكانوا على بينة مما يطلبون ، ويتصوِّرون معاني هذه الألفاظ الثلاثة كلما تحرَّكت
بها ألسنتهم ؛ واستمرَّ ذلك في البطون الثلاثة الأولى للإسلام ، وهي المدَّة التي
انتشرت فيها دعوة « الصراط المستقيم » بسرعة الصوت من مآذن التوحيد في
قارَّات الأرض التي كانت معروفة لذلك العهد ، فسعدت شعوب الأرض بالانضمام
إلى هذه الدعوة وأهلها من العرب الأولين ، واعتزَّ المشاركة والغاربة بالولاء لهم ،
والإتقاء لقبائهم ، فكان ذلك من أولئك وهؤلاء ولاء على الحق ، وتعاوناً مثالياً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في سبيل الخير ، بل اندماجاً في العروبة وسنداً وتغنيّاً بالعربية وبيانها ، لا يعرف التاريخ نظيراً له في أمة أخرى

كانوا هم الناس ، يوم كانوا قائمين بذلك ، ومتعاونين عليه ، ومقتنعين بأن الطريق المستقيم أقرب الطرق ، وأقصرها وأيسرها ، الوصول إلى الهدف العام ، ولتحقيق المصالح الجزئية

ولما اختلطوا بالأُمم ، واختلطت بهم الأُمم ، فأخذت عنهم وأخذوا عنها ، اندس فيهم أبالة فشلوا في تحطيم هذه الدعوة بالقوة ، فزعوا أنهم انضموا إليها ، وأنهم صاروا من حماها ، فاخترعوا لأهلها شيئاً ، ومذاهب متشعبة في « بنيات الطريق » ، وأقنعوا من أقنعه منهم بأن « التخريم » فيها أقرب - في الوصول إلى الأهداف - من التزام الصراط المستقيم . وترتب على ذلك أن صار كثيرون من المسلمين يقولون لربهم في صلاتهم « اهدنا الصراط المستقيم » وهم غير مقتنعين في قلوبهم بأن « الصراط المستقيم » أمرع من « بنيات الطريق » في إبلاغهم أهدافهم وتحقيق مصالحهم . ويومئذ تفرق المسلمون شيئاً في الأصول قبل الفروع ، وتوغلوا في الطرق الصوفية وغير الصوفية ، وصار لمجموعهم لون آخر غير اللون الذي كان للجماعة الأولى التي فتح الله لها الفتوح ، وطوَّع لرسالتها قلوب الأُمم ، ولقعتها أسنتهم ، من زمن الصحابة إلى زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان

هنالك استعجم الإسلام - كما يقول الشيخ محمد عبده - وتحوَّل أهله من « أمة صدق » لأن للصدق من لوازم الصراط المستقيم ، إلى أمة ترى فلاح جماعاتها ، وبلوغ مقاصد أفرادها ، بالتفنن في الأساليب اللتوية ، والدعوة للطرق المتشعبة ، والمهصب للشيع المتضاربة

إن للمسلمين قصة طويلة في حيرتهم بين « الصراط المستقيم » و « بنيات الطريق » تضافت عواقبها وعقوباتها سعة وضيقاً ، استمرت أكثر من ألف سنة

ودراسة هذه القصة ، ومراقبة تطوُّرها على أيدي الأبالسة الذين حوَّلوا المسلمين عن الطريق الأعظم إلى بنيات الطريق ، تقتضي كتابة تاريخ الإسلام وأهلها من جديد ، ولا يقدر على ذلك إلا رجال أخلصوا النية ، وتحضوا الحب لدعوة الإسلام الأولى كما هي ، وعاشوا مع عصور الإسلام كأنهم كانوا من شعوبها في جميع بيئاتها . وعلمناؤنا اليوم بين مشغول بالعلوم الإسلامية في نطاق ضيق ، ولم يتسع وقته لتنوير بصيرته بما يتقلب على الأُمم من أسباب النهوض والانحطاط ، وما يؤثر عليها من الدعايات والدسائس التي تغير مجرى تاريخها . وبين متعلم بالمناهج الأجنبية التي أبدته عن فهم ماضي أمته وأصل دعوتها ، ودقائق سننها التي كوفئت عليها من الله بالخلافة على الأرض ، ثم ما طرأ على ذلك من أسباب الضعف المدسوسة أو غير المدسوسة . فلم تحظ هذه الدراسة بالألمى الحصيف من هؤلاء أو أولئك . وإن بين هذين الصنفين صنفاً ثالثاً ارتفع عن مستوى الصنف الأول ، وآتاه الله بصيرة ومعرفة امتاز بهما على الصنف الثاني . وهؤلاء مع أنهم قلة قليلة صرفتهم مشاغل الحياة عن الاضطلاع بهذا الواجب

ومن خيرة من أعرفهم في العالم الإسلامي اليوم من هذا الصنف الثالث ، أخى العلامة الجليل السيد محمد بهجة الأثرى ، فانه مجموعة رجال في رجل ، أنشأ الله تحت جناح علامة العراق ، وأحد أفذاذ المسلمين من الطبقة التي نشأنا في ظلها ، وهو السيد محمود شكري الألوسي ، علم الأعلام الذين توارثوا حمل أمانات الملَّة بعلمهم ودينهم وأخلاقهم ، فكان السيد الأثرى أخص أبناء السيد الألوسي ، ثم كان له من مواهبه الممتازة ما مكن له في علوم الشريعة ، وعلوم البيان ، والبصيرة في سنن الاجتماع وال عمران ، ومعرفة أقدار الأعلام من السلف فيما شادوا وبنوا ، ومراقبة أعداء الدعوة الإسلامية فيما دسوا من ورائهم وقوضوا . وإني أشكر الفرصة التي سنحت له في استعراض هذا الموضوع بلهجة خاطفة هي وإن كانت في نفوسنا شيئاً عظيماً ، غير أن إشرافها على أحداث بضعة عشر قرناً في البناء والهدم

وأصحابها ، تكاد تكون مقدمة لدراسة قد تخرج في عشرات المجلدات . والسيد الأثرى من مشاغل الحياة - وأقربها قيامه على أوقاف المسلمين في العراق قيام إحياء وتجديد - ما لا نطمح معه في الوقت الحاضر بتسكينه هذا الجهد الأعظم ، لكنني أرجو أن يحاول التوسع فيما كتبه في هذه الرسالة النفيسة ، فيخرج لنا بعدها دراسة أوسع ، تفتح الطريق له بعد ذلك ، أو لمن يوفقه الله للخير من شبابنا ، حتى يكون بين أيدي الجيل الآتي صورة أصيلة صحيحة لصراط الإسلام المستقيم ، وإبنيات الطريق التي تاه فيها المسلمون ، ليعودوا منها إلى سبيلهم الأول ، يتوجهين باستقامة وسداد إلى الهدف الأعظم ، فتعود لهم خلافة الله على الأرض

دار الفتح

بجزيرة الروضة ، تجاه القسطة

بمصر

محب الدين محمد الخطيب

الاتجاهات الحديثة

في الإسلام

محاضرة دُعِيَ الأستاذ الأثرى إلى إلقائها

في صيف سنة ١٣٧٠ (١٩٥١)

في مؤتمر الدراسات العربية ، بالجامعة الأمريكية - في بيروت

الاتجاهات الحديثة في الإسلام

يواجه الإسلام في هذا العصر مجموعتين هائلتين من المشكلات العويصة المعقدة: المشكلات القديمة التي تراكت عليه في عصوره الطوال، وعملت على تغيير صورته وتحويل وجهته عن مجاريها العالمية إلى أن تأخر أهله وعاد هو غريباً بينهم غربته بين غيرهم، والمشكلات الجديدة التي أحدثها له، ولا يزال يحدتها له، هذا السلطان السيامي لدول أوربة في دياره ومحاولاته الكثيرة المتنوعة في مكافحته لإفساد يقظته، وعزله وإقصائه عن واقع الحياة، مخافة سلطانه واستعلائه

والبحث في وجهاته في هذا العصر يستلزم، قبل تناوله، رسم صورتين موجزتين لهاتين المجموعتين من مشكلاته، ترتيباً للتأرجح على المقدمات وربطاً للمسببات بالأسباب. وبدون الاستئثار بما ينبغي أن نضمهما من حقائق، لا نستطيع أن نقدر خطورة التطورات المختلفة التي ظهرت في وجهات الإسلام اليوم

وإني لمضطر أن أعترف، قبل الخوض في هذا الخضم المتلاطم عبابه، بأنني قد ظلمت نفسي أبشع الظلم حين أطلأنت إلى الرضا بتناول هذا المبحث العظيم في محاضرة، في ساعة عابرة من الزمان، وهو يلف في حناياه أحداث أزمنة طوال حافلة من قضايا التاريخ وغرائب الأطوار وألوان المنازع والغايات بما لن يستطيع الإحاطة بها واستخلاص وجهاتها إلا معهد منظم يتوفر على دراستها

ولكن نيل الغاية التي دعيت إلى المشاركة فيها، وتقدير الثقة التي أولانيها علماء الجامعة الأجلاء القائمون بتدبير شؤون هذا المؤتمر الكريم، قد رجعا عندي على هضم نفسي وإيثار إقحامها هذا المأزق

وزاد في رجحانها على ذلك في ميزان التفضيل والإيثار، هذه الصورة الجلية التي آرتسمت في خيالي من جمال النفوس ورجاحة العقول التي سأواجهها هنا، ثم

ما قام في نفسه بعد ذلك : من الطمع في كرم شمائل السامعين وإدراكهم العميق ، وما يوحيه هذا وذاك اليهم من التقدير لطبيعة البحث وزمنه ، وما تقتضيه ضرورة الموقف من عذر المحاضر أو قبول عذره

* * *

ليس الاسلام مشكلات في نفسه عند من يتدارسونه ، ويتعمقون عقيدته وتشريعه ونظامه في قرآنه والصحيح الثابت من سنن رسوله ، وفي ترجمتهما إلى أعمال وأخلاق ومطامح عليهما كما ترى في سير خلفائه وأبطاله وعلمائه ومفكريه وساسته وقادته في عهوده الأولى خاصة

وإنما مشكلاته هي من خارج نفسه في القديم وفي الحديث

فأما مشكلاته من خارج نفسه في القديم ، فقد نشأت له من سلسلة الآفات والسكريات والحملات العنيفة التي تعرض لها في تاريخه المديد ، وكان الباعث عليها عوامل شتى من العصبية والأحقاد وقفت له بالمرصاد ونزلت إلى ميدانه تصارعه وتغالبه ، لتقضي عليه ، أو لاتحد من نشاطه السياسي ونفوذه العالمي ، وتقف بموجاهة حيث تستطيع أن تقف بها من شرق الأرض وغربها ، في سلسلة طويلة من الصراع بينها وبينه تركت آثاراً سيئة في حياة المسلمين العامة أدت نتائجها الخطيرة إلى انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي خصومهم وتقلب هؤلاء على أوطانهم كما هو معروف

وفي الحق أن ما ترتب على هذا الصراع السافر من نتائج سياسية وعقلية وروحية واجتماعية ، بعد عصور طويلة من نشأة الإسلام ، ما كان ليكن بحالته وتفصيله على هذا النحو لو سلم الإسلام من الآفات التي تناولته ونفذت اليه بوسائنها الكثيرة كما تنفذ الأمراض الخبيثة إلى الجسم الحى لتبيده

نفذت هذه الآفات إلى الإسلام بوسيلتين مفترقتين في الظاهر متحالفتين في

الباطن ، وهما وسيلة السياسة ووسيلة الدين ، وطالما ظهرت الحركات السياسية متبرقة ببراقع الدين أو للذهب ، لتخفي وجهها ووجهتها وتنفذ إلى ما تشاء من مآربها تحت ستار اسمه وأنتحال عقيدته

وبدأت الحركات الأولى بمحاولة قلب الدولة الإسلامية ، وهي فتية غضة لم يستقر بعد عودها ، ولم تنشب جذورها ، فشرعت بالاثمار بالخلفاء الراشدين ، وظهر ذلك أول ما ظهر في المؤامرة اليهودية المجوسية التي نفذها « بابا شجاع ! » أي أبو لؤلؤة الفارسي ، فقتل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قائماً يصلي في الحراب فلما أخفقت في تحقيق غايتها بهذه الوسيلة ، عمدت إلى إثارة الفتن الداخلية وتمزيق الوحدة الإسلامية بإنشاء الأحزاب السرية والعنيفة ، والتحزب للأمر الكبيرة في الإسلام ، ونشر فكرة الحق الإلهي في الدولة ، وإبطال الشورى . فشب الصراع على الخلافة ، واستتبع ذلك انتقال الحكم من يد إلى يد بعوامل العصبية القبلية والمذهبية . وبذلك دخل أول الوهن على الوحدة الإسلامية ، وما زال يزداد والوحدة تتجزأ حتى آفست المملكة الإسلامية بين ملوك الطوائف ، وظهرت حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية في أحشاء البلاد ، وهم يمينون في الإسلام وفي الدولة ويهزون المملكة هزاً بالغيلة والفتك بالخلفاء والملوك والعلماء ، إلى أن اكتسح المغول الشرق الإسلامي

وكان أخطر ما قامت به هذه الحركات في توجيهاتها الخفية ، هو العمل على تحويل توجيهات الإسلام الروحية وتشرعاته ونزعاته عن مجاريها العالية تحويلاً تنقضي به إلى إضعافه وإماتة حيويته ، ليكن لها من إحياء عصبية القديمة ، وإعادة سلطانها الفذهب الذي تحن إليه ، وشفاء صدرها من الإسلام

فعمدت - أول ما عمدت - إلى الأصل الذي عليه يقوم بناء الإسلام ، وبه يتحقق وجوده ، ومنه تنفر وجهاته في العقيدة والشرعة والدولة والحياة . وهو

التوحيد الخالص . فإرادته أن يكون نيركا خالصاً من نوع شركها القديم ، ووثنية
حقيرة من جنس وثنياتها الأولى

وتفرع من سعيها في إفساد هذا الأصل الأعظم في الإسلام ، ونجاحها فيه
نجاحاً كبيراً على مر الأيام ، سعيها في تشويه حقائق معظم الأمور التي تترتب
عليه ، وتغيير صورها بتحريف وجهاتها والابتعاد بمقاصدها ونزعاتها عن مفاهيمها
الحقيقية

وكان من وسائلها الكبرى إلى ذلك ، الوضع ، وتمثل التأويل لنصوص
الكتاب والسنة ، وجعل ظواهر وبواطن القرآن وأحكامه ، وإضافة البدع
والمخادعات إلى الدين والعبادات ، وإشباع الأذهان بالخرافات والقصص والأساطير
الاسرائيلية ، والترويج لضروب من الآراء الباطلة والنوازع الضارة ، ولا سيما
نوازع التفرق التي لم يبعث الإسلام إلا لاستئصال منشأها ، وإنقاذ العالم الإنساني
من شرورها وآثامها ، بحمل الدين كله لله وحده لا شريك له في وحدانيته ولا تد
له ولا منازع في سلطانه ، ولا سبيل لأحد من خلقه على خلقه سواه

وما زالت تدأب في ذلك ونحوه حتى استطاعت أن تحيل الإسلام ، على
تراخي الأيام ، أسماء على غير مسماه ، وحملت جماهير المسلمين على أن يألفوا رويداً
رويداً صورة له يتنكر لها الإسلام الصحيح أشد التنكر ، ومفاهيم له فاسدة
تخالفها ظواهر أصوله ونصوصه أشد الخفاقة ، حتى عاد كثير مما كان معروفاً عند
أوائلهم منكراً لديهم ، وكثير مما كان منكراً عند أوائلهم معروفاً عند هؤلاء .

ولا غربة في أن ينتهي الأمر بالإسلام إلى هذه الغاية ، بعد أن نعلم نتائج حركات
هؤلاء في الداخل من جهة ، وآثار صراع الإسلام وراء حدود بلاده وفي قلبها
من جهة أخرى ، في إضعاف الأمة الإسلامية ، وفشو الآفات الاجتماعية بين المسلمين
ومن أخطر هذه النتائج :

انتقال السلطان ، بذهاب الأجيال الأولى من الصرحاء الخمس المتشبهين
بروح الرسالة ومطامعها العليا ، إلى أيدي الموالى والمهجناء من رواسب الأمم الذين
طوام الإسلام في عبايه ، وآتجلوه آتجالاً ظاهرياً ، وبقيت تعمل في صدورهم
الإحنة عليه والبغضاء له

ومنها : فشو الجهل ، والأمية ، والاستعجاب

ومنها : انتهاء أزمة التوجيه الروحي والفكري ، بتأثير هذين العاملين ،
إلى المتصوفة وأشبه الفقهاء . وقد نشأ هؤلاء في ظلال هذا الفساد ، وورثوا تلك
الصورة المشوهة للإسلام كما صاغها أعداؤه ، ولم يكن لهم من الذكاء وحرية
الرأي وسعة العلم ما يعينهم على التحقيق والتحريض ، فآقتنعوا بصدق الصورة التي
نُقلت لهم عن الإسلام ، وألّفوها منذ نعومة أظفارهم ، وشبّوا عليها وشابوا ،
وزادوها فساداً بجمودهم وفساد تخيلاتهم وابتعادهم عن مصادر الإسلام الأولى
ورجعهم في كسب معارفهم الدينية إلى كتب من كتب ذلك الرعيل ، وهي
كتب مذهبية بمجة أملاها التعصب الخالص ، فلم تسكن في الدين بذات روح ،
ولا في الدنيا بذات طموح ، وشغل الناس بالجدل المذهبي ومقالات أهل النحل
والملل ، ومذاهب الروح وفلسفة الإشراق ، ومسائل الاتحاد والحلول ووحد
الوجود ، فحجب ذلك عنهم دينهم ، ولم ينفعهم في دنياهم شيئاً . وأثرت الطرق
الصوفية في الأفكار تأثيراً سيئاً ، وكان من هذه الطرق ما يصطنع نظام الدرجات
للتصاعدة في المذاهب السرية ، ومنها ما يصطنع الدعوة إلى الزهد والآنقطاع بزعمهم
إلى الله ، ويرغب الجماهير في الفقر والمسكنة ، ويستكثر ، بمعاونة الطبقات الحاكمة ،
من الرُبط والتسكيا والزوايا ، فيقصدها المتبطلون من كل صوب ، ليستقوا على
الفتات من صدقات الحاكمين الأغنياء ، ثم ليجاروا بالدعاء لهم أن يطيل أعمارهم
باسط الأرض ورافع السماء !

وقد كان سلطان طوائف المتصوفين ، في اليهود الأخيرة خاصة ، أقوى سلطان على عقول الجماهير ، وكان مساسكهم الوضيع يجري على هوى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطد المظالم وللأستبداد ، ووقف في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلل طاقة الأمة ، وقعد بقواها عن السعى ، وبعقولها عن الابتكار ، وبثرائها عن الاستثمار . ولأسنانود أن نتحدث عن آثارها في تشويه الأخلاق ، وإفساد المعاملات ، وتزوير الدين ، وإحالة العبادة والتقوى فيه إلى رقص ومسكاه وتصدية ورياء . ومظاهر مزورة ، خشية أن لا تنتهي منها ، ونحن نريد الاقتضاب

وبهذا الذي ذكرنا وغيره مما لم نذكر ، بلغ المسلمون غاية التأخر في الدين والدنيا ، وعرضوا أنفسهم للعقوبة التي يكتبها الله على المنحرفين عن هدايته ، إذ أقطع سندهم باروخ الواعى الذي كان يثير أسلافهم إلى العظام ، كما انقطع سندهم بالعلوم العملية التي تسخر للأمة قوى الطبيعة ، وتسخرها لمصالحها وبقائها وخلودها ، فكان أقطع سندهم بهذين الأسرين وأنصرافهم إلى ما وصفناه من الشؤون مدعاة ضعفهم المعنوى والمادى ، وكان ضعفهم المعنوى والمادى علة سقوطهم

على أننا ، وقد انتهينا في رسم هذه الصورة للحياة الإسلامية المتأخرة إلى هذه الغاية ، نرى من الحق علينا ، بل من مستلزمات بحثنا في وجهات الإسلام الحديثة ، أن نكشف عن حقيقتين تاريخيتين لا خفاء بهما على من يقتضون التاريخ وينفضون أحداثه ، نعتقد أنهما أمسكتا العالم الإسلامى أن ينهار ، والإسلام أن يزول ، من أية صدمة من الصدمات التي قرعته . فإن لم يكن من الانتفاضات الداخلية ومفاسدها ، وهى من أعظم ما مئى به نظام من أنظمة العالم من أعدائه وجهلة أهله معاً ، فمن عادة المغول التي أبادت الحرث والنسل وأحرقت الياابس والأخضر ، وإن لم يكن لا من هذه ولا من تلك ، فمن الغارات الصليبية التي آثالت بها جيوش أوربة كلاً بقضماً وقضيضها عليه موجة في إثر موجة مدة قرنين

كاملين ، وإن لم يكن لا من تينك ولا من هذه ، فمن السكارنة الأوربية التي بدأت طلائعها قبل قرنين إلى أن أطبقت عليه في الحرب العالمية الأولى وما زالت ممسكة بخناقها

وهاتان الحقيقتان إنما ترجعان - في واقع الأمر - إلى بقاء القرآن نفسه بنجوة من كل هذه التيارات سليماً لم يمسسه سوء ، وعمله في نفوس المسلمين بما تثيره تلاوته من شعور سليم يحملهم على تصحيح المواقف التي كانت تدفعهم إليها الدسائس والحركات الهدامة دفماً ، على اختلاف حظوظهم من تلاوته وفهمهم لما يتلون

ونحرص على ذكرها لما يترتب عليها من أثر في تبيان وجهات الإسلام الحديثة والأسلوب الذي تسير عليه

أما الحقيقة الأولى ، فتتجلى في المظهر العقلى العام للمجتمع الإسلامى في تلك العصور على ما أصابه من فساد . وقد كان دوام هذا المظهر سليماً إلى حد ما امتداداً لورثة التوجيه القرآنى للمجتمع الأول وللسمحة التي أتصف بها وأثرت أثرها في نفسية المسلمين وعمليتهم ، فكانت فيهم غريزة أو كالغريزة الموروثة إذا تعمدوها التوجيه الفاسد بمواقفه كان فيها القدرة على الاعتصام بأصالة طبيعتها

ولعل وجه هذا المظهر يبدو واضحاً بالمقابلة بينه وبين المظهر العقلى العام لأوربة في عهد الرينسانس ، عهد الإنعاش والحياة ، فقد تبين لنا هذه المقابلة أن نعد ما بلنه المجتمع الإسلامى من الجود العقلى في أشد عصور تأخره طوراً من أطوار الإصلاح الذي بدأته أوربة يومئذ . فلم يشهد هذا المجتمع ما شهدته أوربة : من تجر العقل ، وشلل الفكر ، وجذب الروح ، وقسوة الضمير في مصادرة الحريات ، والضاوأة في إبادة الكتب ومحاربة العلم والعلماء ، وإنزال أقصى العقوبات وأقصاها بالمفكرين من أجل أفكار تبدو لنا عادية ، كانوا يعلنونها في سبيل الإصلاح والتجديد . ويذكر التاريخ أن عدد الذين عوقبوا في أوربة بلغ ثلاثمائة ألفاً

أحرق منهم آثنان وثلاثون ألفاً أحياء، كان منهم العالم الطبيعي « برنوس » Brunos ، وقد نُقِمَتْ منه آراء ، أشدها قوله بتعدد العوالم ، فحكم عليه بالقتل ، وأحرق ميتاً . وعوقب العالم الطبيعي الشهير « غاليليو » بالقتل ، لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وحُبس « دى رومنس » فى روما حتى مات ، ثم حوكت جثته وكتبه ، فحكم عليها بالحرق ، وألقيت فى النار ، لأنه قال إن « قوس قزح » ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى من أنفكاس ضوء الشمس فى نقط الماء . وأصاب « جيوفى » فى جنيف ، و« فايى » فى تولوز ما أصاب هؤلاء ، وحرقة شيئاً على النار ، لآراء لا تستوجب حتى التعزير ، إن لم نقل تستوجب الاحترام والتقدير .

ولا جدال فى أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر والعلم الذى عرفته أوربة . والأحوال النادرة التى عوقب فيها رجال على آرائهم تعد بشادة جداً فى المجتمع الإسلامى ، وكانت إلى ذلك تلبس بها بواعث سياسية خطيرة تعتمد قلب الدولة والقضاء عليها ، كالذى كان من قتل « الحسين بن منصور الحلاج » ، وهو رجل مجوسى الأصل من أهل بيضاء فارس ، اشتغل بالخوارق والحيل ، وأدعى العلم بالأسرار ، ثم تناهى إلى ادعاء النبوة ثم الربوبية ، واستغوى غلمان قصر « المعتذر بالله العباسى » لينفذ بهم إلى تحقيق غايته ، فأدى ذلك إلى قتله . وذكر إمام الحرمين فى كتابه « الشامل » أنه كان بين « الحلاج » وبين « الجبائى » رئيس القرامطة اتفاق مرئى على قلب الدولة ، وأن ذلك هو السبب الحقيقى فى قتل « الحلاج » . وهذا ، كما يرى ، باب آخر يتعلق بحماية الأمن

وحفظ النظام وسلامة الدولة ، وهو غير ما نحن فيه

. ونسكتفى بهذه الأمثلة البسيطة من ذلك ، ونحسبها كافية فى الموازنة الفاصلة لإظهار صورة تأخر المسلمين العقلى على حقيقتها حين نضمها إلى جانب هذه الصورة

من تأخر الأوربيين على سبيل القياس والتثميل بما يجارى الواقع ولا يجانف مذاهب المصدق .

وأما الحقيقة الأخرى ، فهى اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، فى مختلف عصوره . فن ملوك من طراز القاتحين الأوائل فى دينهم وتقواهم وفى سيرتهم وأخلاقهم ، يظهرون فى الفترات ، ويسعون فى إعادة شباب الإسلام وإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة . إلى علماء مصلحين رافعين لمشاعل التجديد ، ثأرين على البدع والمحدثات التى غيرت وجه الإسلام ووجهته ، ينمون على المسلمين أنحرافهم عن سنن القرآن ، ويدعونهم إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح فى صورته الحقيقية قبل أن تعدو عليه الشعوبية ومسلمة اليهود وأضرابهم بالافساد والتشويه .

وبذلك كانت مشاعل الإصلاح فى المجتمع الإسلامى ، متسلسلة يتقد بعضها من بعض . وكانت أضواؤها تختلف سطوعاً وخفوتاً على قدر طاقة مشعلها ، وصرختها جميعاً فى أخذ أقباسها إلى أصل الدين ، وهو القرآن وكونه حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، عالياً منازةً ، متألقاً أشعته . وما زال السكتاب والسنة الصحيحة يبعثان فى نفوس الأذكياء المثقفين الثورة على الوثنية والبدع والمحدثات ، والثورة على ترف المترفين وآستبداد الملوك ، والثورة على الجمود والتقليد ومجانفة الفطرة وسنن الطبيعة التى لا تبديل لخلقها كما سنرى أمثاله فى التجديد الحديث . ولقد كان لا استمرار هاتين الحقيقتين فى العالم الإسلامى أعظم الأثر فى بقاءه متماسكا وفى حفظ الإسلام من الزوال

تلك هى الصورة المصغرة للعالم الإسلامى حين استيقظ الغرب ، وطلق يبعث عن مجالات غنية ، ليطسط عليها سلطانه ونفوذه ، ويفذى حضارته المادية بمعادنها وخاماتها وبترونها ، ويفتح فيها لاقتصادياته وتجاراته أسواقاً تستهلك منتجاته وتنمى ثروته

وأما مشكلات الإسلام الحديثة ، فهي ناشئة من الاحتلال الأوربي ، وهي تسكن وراء طبيعة الاحتلال ووسائله في تثبيت أقدامه في دياره ، ومنها تنطلق أسبابها وبواعثها ، ثم تأخذ صبغاتها المختلفة ، وتتكاثر وتعمق لتستحيل إلى أمراض متوطنة تهلك المجتمع وتحمل طاقته وتبطل مقاومته

وقد دم الغرب بلاد الإسلام ، وحمل معه إليها مظاهر حضارته ومذاهبه في الدين والآداب ، ومنازعه في السياسة والاقتصاد ، وأذواقه في الفنون والآداب ونوازع الحياة ، فأخذ الناس من كل ذلك بحظوظ تختلف باختلاف حظوظهم من الاتصال بها أو القرب منها والبعد عنها ، ففتن بها أناس يسرفون في حسن الظن والتقليد ، وعدوها خيراً كلها . فاندفعوا يقتبسون من ظواهرها ما يستطيعون اقتباسه ، ومن منازعها ما يسهل أخذه ، لا يعدونه ، أو قللسا بعدونه إلى ما وراء ذلك من استبطان الدخائل وتعمق الأصول والغايات . وأنكروها أناس ، فازدوا عنها ، وعدوها شراً كلها ، فلم يأخذوا منها شيئاً ، وحاربوا منازعها ، لأنهم يزدرونها ويعتونها مفتاً ظاهراً . ووقف آخرون موقفاً وسطاً . لا يندفعون مع أولئك في التقليد ، ولا يشايعون هؤلاء على الآزرار ، وإنما يلاحظون الظواهر ويعتقدون البواطن ويرصدون الوجهات والغايات ، ثم يعرضون ذلك كله على العقل والمثل القومية والدينية فيأخذون منه أشياء ويرفضون أشياء ، ثم يلائمون بين ما يأخذون وبين مزاج الفكر الإسلامي وأصوله ، ويصفون عليه من ذلك روحاً جديداً يحمله مدكاً خالصاً للحياة الإسلامية . وبهذا زاد هؤلاء في ثروة الفكر من ناحية ، وأضعفوا من تقليد الفريق الأول ، كما خففوا من حدة الفريق الآخر من ناحية ثانية ، بل صنعوا أكبر من ذلك فأبطلوا مع الأيام كثيراً أو قبيلاً من آثار نوازع الاحتلال في استخدام وسائل المادية والمعنوية في تغليب هذه الحضارة ومراقبتها على الحضارة العربية الإسلامية للاستعلاء بها على الإسلام وحضارته

ولكن الاحتلال لا يقف ولا يكف عن المضى في سبيله إلى غايته ،

والحضارة عنده ليست غير وسيلة من وسائل تثبيت أقدامه في الديار المحتلة إلى آخر الزمان !

وقد كان هدفه - ولا يزال - إذابة شخصية المحتلين في هذه الحضارة ، وتغيير ما بأنفسهم من روح الاعتزاز بعقيدتهم والتعلق بلغتهم وبتاريخهم والإكبار لحضارتهم تغييراً يسلمهم إلى الخضوع لإرادته ، والاستسلام لسلطانه ، والفناء في مذاهبه ، فهو يعلم من سلطان كل أولئك على نفوسهم الشيء الكثير ، ويعلم أنه لن يستطيع أن يؤدي عمله ، وينتهى إلى غايته ، وينجح نجاحاً تاماً ، إلا إذا مهد له السبيل بتوجيهات خاصة ومنازع جديدة تقطع صلة المسلمين بدينهم وتضعف نوازعهم إلى الاستقلال عنه والتمرد عليه

فسعى إلى ذلك - أول ما سعى - بالتبشير ، وكان بظنه سلاحاً نافذاً ، فلم يثمر له أية ثمرة إيجابية ، وذهبت مساعيه في نشره أدراج الرياح ، ووجد أن المسلمين غير محتاجين إلى من يهديهم إلى « عيسى » عليه السلام ، فهم يؤمنون « بعيسى » و « مريم » وجميع التعاليم المعقولة في المسيحية ، ويبرئون أمه من كل شيء كما يبرئونه المسيحيون

وحينئذ فكر في نشر التعطيل بين المسلمين ليكون الوسيلة إلى قطع صلتهم بالإسلام ، فأسس لذلك مدارس خاصة ، كالمدرسة العظمى التي أسست في الهند ، لنشر تعاليمه ، وبث مبادئها في نفوس النشء المسلم . فضل كثير منهم ، وأشرخوا روح الإلحاد في قلوبهم ، ولا سيما أولاد الأمراء الذين كانت معظم طلاب تلك المدرسة منهم . وهال ذلك السيد « جمال الدين الأفغاني » فآلف رسالته المشهورة « الرد على الدهريين » ، وانتشرت الرسالة في طول البلاد وعرضها ، فأخرج كثير من أمرائها وأولادهم من تلك المدرسة ، ورجع آخرون عما كان خاضعاً لنفوسهم من التعطيل والإلحاد

وعلى السيد « الأمانى » مقصد المحتلين من ذلك بأنهم رأوه أقرب وسيلة إلى أغراضهم ، وتأيد سلطانهم في الهند ، وقال : « إنهم وجدوا أن الديانة الإسلامية تطلب من أتباعها أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان في أوطانهم ، ولاحظوا أن ذلك هو طبيعة الإسلام التي لا يمكن أنسلاخ عنها ، ولا انتزاعها من فطرة أبنائه ، فكروا في أمر يصف أثر هذه العقيدة في نفوسهم ، فرأوا أن أقرب وسيلة إلى نيل مرادهم هو نشر التمطيل بين المسلمين »

ويشير مستر « جب » إلى شبكة المدارس الأجنبية التي انتشرت ، من منتصف القرن التاسع عشر ، في معظم البلاد الإسلامية ، وتولت الدول الأوروبية تأسيسها فيها ؛ وإلى أثرها في صياغة أخلاق التلاميذ وتكوين ذوقهم وإعدادهم لتأثر بالمؤثرات الأوروبية ، فيقول في بعض كلامه :

« في أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بإثناء التعليم العلماني بإشراف الإنجليز في مصر والهند . ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي تُرمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي ولدت ذلك في البلاد الإسلامية أبدت هذه التهمة . ولكن الذي فعلته بلا ريب أنها ربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسة إلى حد ما في أوطانهم الأصلية . وبإضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هادمة ، وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه »

وفي هذه الإشارات الموجزة إلى نتائج وجهة الاحتلال وأثر مساعيه في تغيير العقائد والأنظمة الاجتماعية ، تظهر الأصول التي تنشأ منها كليات مشكلات الإسلام في هذا العصر ، وتتحو هي جزئياتها الكثيرة في النواحي النظرية

والعقائدية نحو نقض صرح الثقافة الإسلامية الثالث من أساسه وتحطيمه تحطيماً شاملاً ومن أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب ، وأخذ جماعة من الغربيين في كل دولة ذات مطامع استعمارية بمكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسة وتاليفاً ونشراً ، وتلك هي الغاية التي يعملون لها ، ويثيرون من أجلها المشكلات بوجه الإسلام

* * *

فهاتان هما صورتان الموجزتان ، لم أبلغ منهما كل ما تريد ، ولكنهما على كل حال تلقيان شيئاً من الضوء على الوجهات الحديثة للإسلام في هذا العصر وأبدأ بالموضوع نفسه ، فأقول :

لما باغت أوربة العالم الإسلامي ، وبدأت تغزوه من عن يمينه وشماله ، وتغلغل جيوشها في قلبه ، منذ القرن الثامن عشر - كان على الإسلام أن يكلم شتمته ، ويحارب في ميدانين ، في الميدان الداخلي لتحرر من أغلال العصور الوسطى ، وفي الميدان الخارجى لرد عادية المعتدين الغزاة

فصاغت الأقدار في وقت متقارب جداً وجهته إلى ذلك في مظهرين هما الإسلام كله ، ولا يكون الإسلام إسلاماً إلا بهما مجتمعين ، مظهر مادي حربي ، ومظهر ديني روحي

أما المظهر للمادي الحربي : فقد كشفت عنه الإمبراطورية العثمانية والدولة العلوية بمصر ، حين سعى بعض السلاطين العثمانيين وساسة الترك إلى اقتباس وسائل القوة والتنظيم الحربي والإداري من المظاهر المدنية لحياة أوربة ، وسعى إليه كذلك « محمد علي » في « مصر » من الناحية الحربية والاقتصادية والعلمية والعمرانية على حفظ مختلفه من التوفيق . وقد أرادوا جميعاً ، بعد أن لمسوا تفوق الغرب بوسائله الحديثة ، أن يتهيأوا للدفاع عن الوطن الإسلامي بمثل الوسائل التي يصطنعها . ولكن هذه

التي قَدْ جَاءَتْ ، لسوء الحظ ، متأخرة جداً ، إذ كانت أوربة قد استبكت وسائل نهضتها خلال ستة قرون متقدمة توفرت فيها على الإصلاح والتجديد والانبعاث ، وأخذت تعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها طيراناً ، وتتمخض صناعاتها الحربية كل يوم عن سلاح جديد تبادى به أعداءها قبل أن يتمكنوا من الاستعداد للقائها

وليس المهم في بحثنا أن نشير إلى غناء ذلك أو عدم غنائه يومئذ ، وإنما المهم ما أريد أن أشير إليه من دلالاته العملية على وجهة الإسلام وميرونه ووفائه بحاجات كل عصر

فإن إسماع هاتين الدولتين إلى إدخال وسائل الغرب ، بل قبول التنظيم الأوربي في الإدارة والعمران والفن ، هو مظهر واضح لهذه الوجهة فيه والاستعداد لديه . وهي وإن تسكن من البديهيات ، إلا أن الجود الذي مئى به بعض المسلمين والعصبية التي ابتلى بها غيرهم فرموا الإسلام بالعقم والجود والعداء اسكل جديد ، يجعلان من هذه الظاهرة البديهيية حالة تستوجب التنبيه والدلالة عليها

فما من شك أن نظاماً من الأنظمة كائناً ما كان نوعه وشكله ، لا يُسكتب له التوفيق ما لم يكن له سناد من القوة . وإذا كان النظام شطراً ، فالقوة التي تسنده هي شطره الثاني ، وبدونهما لا يُعد للنظام وجود . ومثلها مثل الجسم والروح إذا اجتمعاً كانت الحياة ، وإلا فالأوت

ومن هنا حث القرآن المسلمين على إعداد القوة ما استطاعوا إلى إعدادها . سبيلاً ، وأن لا يقفوا تفكيرهم على قوة بعينها ، إذ الأسلحة والقوى تتنوع بتنوع الأزمنة وتطور العقل والعلم والصناعات . يدل على ذلك هذه الآية السكريمية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسطاعتم من قُوَّةٍ ﴾ ، وهذا التفكير الذي في كلمة ﴿ قُوَّةٍ ﴾ ، والتفكير في نحو اللغة العربية بعيد استغراق الجنس كما يقول العلماء ، ويفسر لنا

في هذه الآية إرادة التطور في مفهوم القوة باختلاف العصور ، كما توجب الآية تقصى الاستطاعة إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصناعية والفنية لإنتاج القوة

وذلك ما أدركته العقلية الإسلامية حين رأت شيئاً جديداً وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلا بوسائله ، فأنصرفت إلى إعداد جيوش لها كل ما للجيش الحديثة من صفات الطاعة والنظام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل في البحر كالتي يملكها الغرب . ولكن الدول الأوربية كانت أكثر عُدّة واستعداداً وحيلة ، فالأسطول الفخم الذي بناه « محمد علي » أحرقت هذه الدول غيلة في واقعة « نافارين » ، ثم تألبت عليه ، وحالت بينه وبين اقترحام « الأستانة » لا حباً للدولة العثمانية التي تعدّها أعظم أعدائها ، واسكن تقليداً لأفكار الدولة الفتية التي خلفت « نابوليون » على « مصر » ، وقوى سلطانها وامتد جنوباً وشمالاً ، حتى عاد أمرها مرهوباً يخشى من ظهوره وتغلبه أن يكون عاملاً جديداً في صد أوربة عن وجهتها ، وقد يستطيع أن يجمع كلمة المسلمين ويقضى على طغيانها . ثم كان من دسائس أوربة بعد وفاة « محمد علي » ما أضعف خلفاءه ، ومهد لاحتلال مصر . وبذلك أزال هذا العامل الخطير والمنافس الجديد ، ورجعت إلى منافسها القديم الذي تظاهرت بحمايته من « محمد علي » ، فلم تترك سبيلاً تنفذ منه للقضاء عليه إلا سلسكته ، حتى أخذت أنفاسه في الحرب العالمية الأولى

ومن هنا زالت من وجه أوربة القوة التي أقضت مضاجعها عصوراً طويلة ، وأثارت جنونها منذ احتل « محمد الفاتح » القسطنطينية وتغلقات الجيوش العثمانية في البلقان ، إلى أن نطحت جيوش « سليمان القانوني » أسوار « فينة » ، فتداعت الدول الأوربية إلى حلف سارت بتنفيذ خططه رويداً رويداً حتى أدركت غايتها على نحو ما

ونقول : « أدركت غايتها على نحو ما » ؛ لأننا نعتقد أن القوة لا تتمثل

بآلات القتال وحدها ، وأن شهر السلاح دائماً غير ممكن لكل أحد ، وأن وراء هذا النوع من القوة قوى أخرى بها توجد إذا فُقدت ، وهى بيد الإسلام فى هذا الشرق ، والوجهات الجديدة تُرى المتأمل كيف هو يدر كها ، وكيف يسعى فى توفيرها لنفسه سعياً جامعاً ليس من السهل كبحه بعد اليوم

وأدع الاطالة فى هذا الشأن ، لأنقل إلى المظهر الثانى من المظهرين اللذين هيأتهما الأندلس فى مطلع العهد الجديد ليقظة الإسلام ، وهو المظهر الدينى الروحى وأعني به تلك الحركة الدينية العنيفة التى نشأت فى جزيرة العرب ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث فى الشرق والغرب ، واضطرت أن يُعنى بأمرها

وهى حركة « الوهابيين » التى أحدثها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، وقد عاصرت فتح « نابوليون » لمصر ، وكانت خليفة بأن تدعى « حركة المحمدين » نسبة إلى باعثها وطبيعة دعوته إلى التوحيد الخالص الذى بُعث به رسول الله محمد ابن عبد الله ﷺ ، ولكنها نسبت إلى أبيه ، وأبوه لا يد له فيها ، لأمر ما أرادته السياسة العثمانية وأشياء حين أشفقت من انتشار سلطانها أشد الإشفاق ، فقاومتها ما وسعها المقاومة ، وبالغت فى تشويه غايتها ، وعزتها إلى الابتداع والخروج على الدين ، وجعلت هذا النبى عزواناً على ما تزعمه من ضلالها

وندع التاريخ السيامى لهذه الحركة ، لنفرغ لوجهتها فى الإسلام كما تهدى إليها كتب زعيمها ودراسات الباحثين المجاهدين من الشرقيين والغربيين . والجمع عليه أن هذه الحركة فى الإسلام جديدة وقديمة معاً ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة فى حقيقة الأمر ، كذلك يقول « طه حسين » فى « الحياة الأدبية فى جزيرة العرب » . وهو يوضح ذلك بأنها « ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية ، هى

الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصاً لله وحده مُنقياً لكل واسطة بين الله والإنس والناس ، وهى إحياء للإسلام العربى وتطهير له عما أصابه من نتائج الجهل ومن على أختلاط بغير العرب . فقد أنكر « محمد بن عبد الوهاب » على أهل « نجد » ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية فى العقيدة والسيره . كانوا يعظمون القبور ، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ، ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر . وكانوا قد عادوا فى حياتهم إلى حياة العرب الجاهليين ، فماشوا من الغزو والحرب ، ونسوا الزكاة والصلاة ، وأصبح الدين اسماً لا مسمى له . فأراد « محمد بن عبد الوهاب » أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوماً مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبى بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً »

ثم يقول : « ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب ، وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو جداً أن يوجد هذا المذهب كلمة العرب فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وجد ظهور الإسلام كلهم فى القرن الأول »

ويمضى على هذا السنن فى بيان أثره فى الحياة العقلية والأدبية عند العرب من نواحي مختلفة ، وفى إيقاظ النفس العربية ، وما وضع أمامها من مثل أعلى أحبه وجاهدت فى سبيله بالسيف والقلم واللسان ، وما أفاد العالم العربى كله من هذه الحركة العقلية الجديدة ، وهو كلام يحسن الرجوع إليه فى هذه الرسالة

ويقول « لوثراب ستودارد » الأمريكى : « إن هذه الثورة التى أشعلها « محمد بن عبد الوهاب » فاشتعلت وارتفعت ، أندلعت ألسنتها إلى كل زاوية من زوايا العالم الإسلامى . . . فتبدت تباشير صريح الإصلاح ، ثم بدأت اليقظة الكبرى فى عالم الإسلام »

والمتمسكى لأطوار الإصلاح في العالم الإسلامي، وعلاقة بعضها ببعض، يرى في هذه الثورة امتداداً لاتفاضات قديمة عرقها العصور الإسلامية في آثار سلام حزم في الأندلس، ثم في ثورات أتباع الإمام أحمد بن حنبل في بغداد. فكانوا يرون ما يقرض له الإسلام من لوثات أهل البدع والأهواء وما يتهدد المجتمع من سرف المسرفين في الشهوات والموبقات، ثم في اقتفاضة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية في بلاد الشام في القرن الثامن الهجري، وهي أروعها تجديداً وأبعدها أثراً في إصلاح الفكر الإسلامي. ومن كتب ابن تيمية وأتباعه كآبن القيم وآبن قدامة وآبن كثير وغيرهم، آتخس محمد بن عبد الوهاب جذوته الإصلاحية، فدرس القرآن والسنة دراسة متجردة من أوهام المخرفين وأهل الأهواء، بعثته إلى هذا التجديد الذي وثق فيه توفيقاً لم يسكتب لأولئك، لأنهم خذلتهم السياسات، ووجد هو من السياسة حماية له ومن قوتها نصراً لدعوته، فكان له هذا الأثر البعيد الذي يصفه «لوثروب ستودارد» في عالم الإسلام الحديث، وهو أثر يطول شرحه جداً إذا تفصيناها في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وبلاد شمال إفريقيا والهند وتركيا وغيرها، والمهم فيه نتيجته من حيث إنه وضع صورة الإسلام الأولى في نصابها التام من الحقيقة، ثم تأثير ذلك في نفسية المسلمين وتوجيهها إلى المثل الأعلى، ثم تأتي من بعد هذا وذاك دلالاته على الحيوية السكمنة في الإسلام وعلى ما يحيش في نفسه من إرادة الحياة الراقية للمسلمين، وإن كان لا يزال يجد من جهلاء المسلمين وبعض حكامهم وساستهم وعلمائهم أيضاً أزواراً عنه حيناً، وحرماً عليه وذوداً للإصلاح حيناً آخر، إنايات في أنفسهم لم يصهرها الزمن ولم يطهرها من لوثاتها الموروثة بعد.

ولما تجسم للدولة العثمانية ولمفكرى الإسلام بعد هذا العهد شبح «المسألة الشرقية» التي نجمت منذ سنة ١٨٢٥ م، بتفاهم التدخل الأجنبي الأوربي السيامي والاقتصادي في البلاد الإسلامية، وأدركوا جميعاً أن حلول السكارثة العظمى غير

بعيد عنهم، وأن عليهم أن يستنفروا الرأي الإسلامي العام، ظهرت حركة «الجامعة الإسلامية». وكان المسلمون في كل مكان يتلففون إلى العشور على وسيلة تعيينهم على أن يستعيدوا سلطانهم على مصابر أورهم، فاستجابوا لها بحماسة فائقة، وألتس الزعماء الوسيلة في الشعور بالوحدة الدينية، وهي أكبر قوة مشتركة بين المسلمين تنظم شغلتهم وتجعل منهم قوة مرهوبة يحسب حسابها في الصراع الدولي إذا أحسنوا معها العمل على آتخاذ الوسائل الحديثة المجدية، وكثير أنصار فكرة «الجامعة الإسلامية» من المفكرين، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في عهد السلطان «عبد الحميد الثاني»، وكان أكبر دعاتها في العالم الإسلامي «جمال الدين الأفغاني» و«عبد الرحمن الكواكبي» و«محمد عبده»، وأعظم مؤيديها مسلمو الهند الذين شعروا بعد زوال دولتهم على يد «شركة الهند الشرقية البريطانية» بحاجتهم الشديدة إلى التأييد الخارجي أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطاني.

وما من شك في أن حركة «الجامعة الإسلامية» هذه قد نجحت مقدماتها نجاحاً تاماً من حيث استطاعت أن توفظ الشعور بالوحدة الإسلامية وتقويه وتقوية لم يسبق لها مثيل منذ عصور، وقدم المسلمون في أنحاء الأرض كل الدلائل الحسية على تأييدها وشد أزرها. وكان مقدراً أن تنجح بنتائجها، لولا عوامل كثيرة كانت تسكن وراء طبيعتها والاستجابة لها، وأهمها ما كان يعوزها من الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التي كانت تحتاج العالم الإسلامي، ولم تسكن الدولة العثمانية يومئذ قادرة على تحقيق هذه الملاءمة بوجه من الوجوه، فسياستها في الحقيقة كانت قائمة على خداع دول أوربة وتخويفها بشبح إعلان الجهاد في العالم الإسلامي ولم تعد له وسائله المنجحة، واقتصادياتها كانت أقرب إلى الإفلاس منها إلى الكفاف، وصناعاتها الحربية وغير الحربية غير موفورة، وإدارتها قائمة على الاستبداد والرجمية، كالذي ظهر في معظم حركات السلطان «عبد الحميد

الثاني» وتوجيهاته، وأدى إلى إسقاطه، بعد ثلاثين عاماً من حكمه، استطاعت «اليابان» بمثلها أن تكون أمة ذات حضارة عظيمة، وقوة هائلة تجاهد بها الدول الكبرى، فتضرب روسية، وتنافس أوربة وأمريكة، ولم يحسن «عبد الحميد» فيها من العمل غير سياسة التخويف و«خفق» و«مدحت» ونفى الأحرار وتقريب «الصيدى» وتخدير الشعور العام بمخدرات التصوف وبرود تراب القبور بدلاً من إيقاظه بمنهات الإصلاح، وخنقه بدخان التكايا والزوايا بدلاً من إحيائه بمنعشات القوة وبأصداء المعامل والمصانع تتجاوب بها آفاق البلاد.

وكان شأن الممالك الإسلامية المستقلة الأخرى كإيران والأفغان كشأن الدولة العثمانية في الحكم الاستبدادى المطلق إن لم يكن أفضح وأقبح منه. ولقد هال زعماء الفكر في الإسلام ما لمسوه من مفاسد هذا الاستبداد في المجتمع، وما أدركوه من انعدام الاتساق بين منازعه وبين روح الإسلام وما يدعون إليه: من الإصلاح، وبعث حركة «الجامعة الإسلامية»، وقدرُوا أن مساعيهم ذاهبة أذراج الرياح حتماً مع تغلب الاستبداد وفساد الأوضاع الإدارية والاجتماعية والسياسية، فاجتمعوا إلى مقاومته، وفضح السيد «جمال الدين الأفغانى»، وهو داعية الحركة الأكبر، تصرفات الطبقات الحاكمة، ودعا إلى إقامة الحكم الشورى، وتمالت أصوات المصلحين باستنكار الاستبداد، ذاهبين إلى أنه أصل لكل فساد، ناعين على الحكام انحرافهم عن سبيل الإسلام في حكم المسلمين وإدارتهم، منبهين على عواقب ذلك، ولم يمنهم ما علموه من قاصلة في طبائعهم وتعذر إقلاعه عن منبهيه المسلمين على مضاره، وإثارتهم إلى تقويض صروحه، حتى قال في ذلك «السكواكى» كتيته الرائعة المعبرة عن قوة يقينه وبعده مطارح أمه في صدر كتابه «طبايع الاستبداد ومصارع الاستعداد»: «كأن حق وصيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الرياح فقد تذهب غداً بالأوتاد».

وانقد ذهبت هذه الصيحات فعلاً بالأوتاد، وطوحت بعبد الحميد وضوائه. وعملت أفسكاره وأفسكار بقية المصلحين عملها في توجيه العالم الإسلامى إلى تغيير أنظمة الحكم وإصلاح نفسيات الحاكمين، كما أفادت دعوتهم إلى «الجامعة الإسلامية» بتأثيرها النفسى في المسلمين، بما أيقظته فيهم من الشعور القوى بالوحدة الذى ما زال ماثلاً في كل ما تلاها من الحركات في البلاد الإسلامية، وإن أخفقت في بلوغ نتيجة السياسية لا قدمنا من الأسباب.

وهكذا كانت مهمة زعماء الإصلاح الإسلامى، منذ بداية عهد اليقظة، تستهدف وجهتين: الهدم والبناء في وقت معاً، ثم تقيم البناء على أساس مهم جداً لا يتم أمر عظيم كالذى ينفونه بدونه، وهو: تغيير نفسية الشعوب الإسلامية، وتحريرها من ركام المنازع الفاسدة والأهواء الدخيلة في الإسلام. وهو أساس أرشد إليه القرآن في قوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وبه نقل الرسول العرب من حال إلى حال، وعليه أقام عمود الإسلام.

وكان هؤلاء الزعماء يعلمون أن محاولة الإصلاح بالبدء بتغيير معالم الحياة الظاهرية وحده إنما هو أخذ بذنب الإصلاح لا برأسه، وأن ما يملأ جوانب النفسية الإسلامية من رواسب العقائد الباطلة يقف حاجزاً عالياً وسداً منيعاً دون بلوغ كل أمل في تغيير الأوضاع القائمة ما لم يغير ويملا بالأفكار القوية السليمة النابضة بالحياة كما يوحىها الإسلام الصحيح.

لهذا مضى كبار المفكرين في آتجاه خطة الإصلاح الدينى على نحو ما صنع «لوتر» في الغرب، وانتقل به الشيخ «محمد عبده» وتلاميذه وخلفاؤه في أواخر القرن التاسع عشر إلى ميدان كان أرحب أفقاً وأكثر ملاءمة للعواقف الجديدة التى دُفع إليها المجتمع الإسلامى دفعا، وأمكن قدرة على حل المشكلات الحديثة التى أثارها الغرب بتوجيهاته إلى الإلحاد والتشكيك في الإسلام، أو نشأت من

مغالبة الثقافة الحديثة في أمهات مسائل المعرفة ، خاصة في تركية ومصر والهند

فبنوا منهاجهم الجديد على أصول راقية كان لها أكبر الأثر في توجيه النهضة الحديثة ، وتحرير الإسلام من أغلال الجود ، وبعث المسلمين في سبيلهم الطيبين إلى التحرر من كل سلطان عليهم غير سلطان الله

وكان في هذا المنهاج هدم ، وكان فيه بناء .

كان فيه هدم لأصول العوامل القديمة التي عدت على الإسلام بإفساد جوهره . وتغيير صورته ، ونقض للشبهات التي يحوكمها دعاة التعطيل الذين ربهتم مدارس الاحتلال ويردها الشعوب ونفر من المستشرقين في الدين ورسوله ، والإسلام وأهله ، والعرب ومدنيهم ، والقرآن وإعجازها ، والفصحى والعامية ، والحروف العربية والحروف اللاتينية ، إلى آخر هذه السلسلة وفروعها المعروفة

وكان فيه بناء ، وإحياء للعاطفة الدينية المهددة برى إلى تقوية الروح الإسلامى ، وإعداده للصمود في وجه الحملات المفرضة المنظمة على الإسلام ودحرها

وقد تناولات هاتان الوجهتان من الهدم والبناء أمهات قضايا العقيدة والشريعة ، والمجتمع والنظام والتربية والأخلاق ، وأصول التفكير ، وقواعد العمل في الإسلام . وحفلت دراساتها بالتحليل والتعامل في تبيان وجهات الإسلام ، وكشفت عما هو منه وعما هو غريب عنه ومحمول عليه من العقائد والآراء ، كما حفلات بالبحث في ماضى الإسلام وحاضره ، وفي هدايته وآرتقائه المعنوى وبعثه على الارتقاء المادى ، وفي موقفه من حرية الفكر والعقل والعلم والمدنية ، وفي مسالكه في السياسة والاقتصاد والحرب والسلم ، وفي معالجته لقضايا الإنسانية الكبرى ، وفي الصلة بينه وبين الأديان وإدراكه للعلاقات الدولية وشمول نظراته الموحدة الإنسانية وقدرته على النهوض بها والجمع بين الأجناس المختلفة والنسوية بينها في المسكنة والعمل وتهئية القرض . وتناولات ذلك كله بأساليب علمية قوية واضحة

القسمات ، ونسق من التفكير المرتب يجمع أحسن ما في القديم والحديث

هذه الحركة الخطيرة ظهرت في مصر ، فالبثت أن جاوزت حدودها إلى الهلال الخصيب بل إلى العالم الإسلامى كله ، وكانت مجلة « النار » سفيرها إليه ، حملت أفكارها أربعين عاماً إلى بلاد العرب كما حملتها إلى بلاد الترك والهند والصين وأرخبيل الملايو ، فأثارت اهتمام المسلمين فيها بالإصلاح الدينى وكونه أصلاً يقوم عليه كل إصلاح

وترددت أصدائها في آفاق الأنضول ، كما ترددت في أندونيسيا والهند ، ففي أندونيسيا يذكر ك . ك . برج من تأثيرها في الشبان الأندونيسيين الذين يدرسون في « الأزهر » أو في « مكة » أن هؤلاء جميعاً رأوا فيها الإسلام على نور جديد ، لم يروا فيه مثلاً للتشدد والجود ، ورأوه لا يزال الدين المختار بين الأديان وحامل المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد في تسامح ورفق . قال : « واصبح الذين اقتبسوا من نور المنار في مصر « منارات » صغرى في أندونيسيا بعد أن عادوا إليها »

وفي الهند تخضت حركة فيها من هذه الحركة تشابه في المناهى والمنازع والوجهات ، متأثرة بها ومستقلة بظروفها الخاصة أيضاً ، وكان ما أشرنا إليه في الكلام على « الجامعة الإسلامية » من شعور المسلمين فيها بالحاجة إلى التأييد الخارجى أمام خطر الهندوكية والاستعمار البريطانى قد أثارهم في الوقت نفسه لإصلاح الداخل ، فظهرت فيها حركات دينية واسعة النطاق تقابعت بين حين وآخر في أثناء القرن التاسع عشر ، وكانت كلها من طراز الحركة الدينية في جزيرة العرب التي شعارها « الرجوع إلى القرآن » . وكان تتابع هذه الحركات تمهيداً لتلاقى النهضة الهندية بالهضة المصرية والتأثر بها من غير شك . وقد أنهشت النهضة

الهندية الجديدة بعد سنة ١٨٥٧ م ، بدأها السير « سيد أحمد خان » بإنشاء « جامعة عليكره » و « ندوة العلماء » ، وتبع ذلك قيام جامعات وجمعيات قوية سارت بالإسلام إلى هذه الوجهة ، ففلاقي شرقه بفرجه ، وتعاونت أفكار « شبلي النعماني » و « سيد أمير علي » و « محسن الملك » و « صديق خان » و « محمد علي » و السير « محمد إقبال » ، في جناح الإسلام الشرقي مع أفكار « جمال الدين » و « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « رشيد رضا » و « المراغي » و « مصطفى عبد الرزاق » و « السكواكبي » و « الجزائري » و « القاسمي » و « الألوسي » و « رفيق العظم » و « شكيب أرسلان » و « ابن باديس » في جناح الإسلام الغربي ، فكان من آثار هذا التعاون هذه البواكير التي تشاهد في العالم الإسلامي

وقد لفت إشراف هذه الحركة الواسعة أنظار الشبان المسلمين المأخوذين بتوجيه أوربة في البلاد الإسلامية كافة - إلى الإسلام ، وكان فيهم آزرار عنه ، فأجذبهم إليه ، فألفوه في صورة أخاذة غير الصورة السكائية التي رسمت لهم ، ورأوا من حقائقه ما لم يخالوه فيه من قبل ، وبصروا بدساتير وآداب ومثل تعلو فوق متناول المطاعن والشكوك ، ولم يروا فيه جهوداً كما لقنوا ، وإنما رأوا شباباً متجدداً وحياة نامية ورفقاً وتسامحاً وإخاء ومساواة وعدلاً ، فأنجذبوا إليه ، وأثربوا حبه ، وهاموا فيه ، وأولوه ما يستحق من اهتمام ورعاية ، وتعلقوا بأهدافه . ورأوا في قادته من قوة الشخصية وسعة العلم وأصالة الرأي وما صحب ذلك من الحماسة المشبوبة في مناهضة الاحتلال الأجنبي مع صفاء الضمير وخلوص النية ، ما زادهم إعجاباً وإيماناً بالحق الذي يدعون إليه ، ووثقوا أن هذا الذي رسموه من مناهج الإصلاح الديني هو السبيل الموصل إلى المطامح القومية والأمانى الوطنية التي تهبس في صدور المسلمين والعرب ، وتظهر في مناهضتهم للاستعمار ، فاندفعوا فيه ، وأثربوا أعلامهم في تبيان محاسن الإسلام ، عاين الأمانى الوطنية جزءاً منه لا تنفك عنه

وبهذا آنداحت دائرة التجديد الإسلامي وامتدت إلى نواحي شتى وآراب مختلفة . وقد كان « جان جاك روسو » و « الثورة الفرنسية » و « الفكر الأوربي » الأمثلة التي يحتذيها هؤلاء ، فأصبحت عبقرية « محمد » ومثل الثورة الإسلامية وسمو الفكر العربي هي المثل التي يلتزمون فيها الإصلاح والبعث . وكانت القيادة التوجيهية إلى علماء « الأزهر » و « الزيتونة » و « القرويين » و « مسجد دهل » ، فأصبح خريجو الجامعات الشرقية والغربية شركاءهم فيها . وكان نشاط العلماء الدينيين مقصوراً على أروقة المدارس والمساجد لا يتعدى منطقتها المقفلة ، فبسط هؤلاء جناحهم على باحات المجتمع كله ، ومدوه إلى الجمعيات والجامع والأندية والمؤتمرات والصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، وكتبوا حقائق الإسلام في ضوء العلم الحديث بفهم مستقل ووعي عميق ، وواءموا بين الدين والحياة ، وعرضوا نظريات العدالة الاجتماعية والضمان الجماعي والتأميم والمذاهب الاشتراكية والشيوعية والرسالية على حقائق الإسلام ، وقابلوا بينها ، فأثبتوا قدرة الإسلام على مواجهة المعضلات بنفسه ، ولم ينسوا مع ذلك أن يتأملوا ويطلوا التأمل في حضارة الغرب على أنها وسيلة لا غاية ينتفع من مادياتها بما يمكن للأسلام من الظهور والاستعلاء

كذلك أخذت هذه الحركات بعضها برقاب بعض ، وسلكت سبيل الإصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وهي ماضية إلى غاياتها في قوة وروية لتبلغ نتائجها المؤملة

وقد تجمعت هذه الحركات بعد هذه المراحل في ثلاث جهات كبرى تتلخص فيها جميع منازع الإسلام ، أنصبتها الأحداث ، وأبرزها الجهاد الطويل في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من أغلال القرون القديمة وأغلال التقليد للفكر الأوربي ، وتكوين شخصية مستقلة له يحقق بها حريته وحرية أوطانه

هذه الجهات هي : وحدة الإسلام ، ووحدة الأديان ، والوحدة الانسانية ؛

تأتى بعضها من وراء بعض ، وتشكل الواحدة الأخرى

وقد تثير ملابسات الأحوال الحاضرة شيئاً من الاستغراب عند قوم ، وقد تثير شيئاً من الإنكار عند آخرين في أمر هذه الوجهات الثلاث في الإسلام اليوم ومن حق الذين يقفون عند بعض الظواهر دون بعض ، ويهللون التأمل في سلسلة الحركات الإسلامية منذ قرنين ومناشئها ومناحيها والينابيع التي تروىها وتبعث فيها الحياة ، وما أصابت من توفيق ملحوظ ونجاح غير منزور . . . أقول : من حق هؤلاء جميعاً أن يستغربوا ذلك ، أو أن ينكروه . ولكن الباحثين المتمعقين ممن يرصدون حركات المجتمع الإسلامي وتطوراتها ، لا يملكون غير التسليم لهذا الذي أذهب إليه

ويقول « ماسينيون » أن هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون ، وهي أن الحركات الإسلامية تستعد في خفاء وصمت ، وتفدلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة - كما يقول - نستطيع تحليل ما يقع بأن أول الأدوار هو « دور النداء الباطن » الذي يهيب بالضمير الاجتماعي وإن ظل في حالة هدوء ظاهري ، أو ظل كما يبر عنه في عرف طوائف مختلفة في حالة قمود أو تقية أو كتمان . وإذا فضج هذا النداء ، تبعه الدور الثاني توّاً ، وهو « دور الدعوة » لا استرداد ما تعطل من حقوق الشريعة ، وسبيل ذلك الجهاد . وهذا هو المفهوم الذي يصدق على جميع الحركات عند مختلف الجماعات وفي مختلف الأوقات

ولا جدال في أن اليقظة الإسلامية الحديثة قد اجتازت « دور النداء الباطن » ، ودخلت في « دور الدعوة والتنظيم » في سلسلة من الحركات قامت في مختلف أنظار الإسلام من الساحل الأطلسي إلى أرخبيل الملايو ، وسارت قدماً نحو وجهتها لا تبالي ما تأخذها به أوربة من سياسات الدس أو البطش أو الإرهاب ،

فتمت نمواً خطير الشأن في بعض الجهات ، ودخلت في طور الاكتمال في بعض آخر ، وخصائصها في كل جهة متشابهة ، وآثارها متماثلة : لأنها تنزع عن قوس واحدة ، وترمي نحو هدف واحد ، ولا مفر من أن تتلاقى يوماً ما عند نظام موحد لدولة واحدة . وربما لا يوجب ذلك الدوائر السياسية الأوربية ، أو القانطين من ساسة الشرق ، أو بعض ذوي الأغراض من أجراء الاستعمار ونحوم ، ولكن الواقع هو هذا ، لا ما يشتهيه هؤلاء

أما الوجهة إلى الوحدة الإسلامية ، فإنها ترجع بطبيعتها إلى الأصل الأعظم الذي بُني عليه الإسلام ، وهو عقيدة التوحيد ، وإن شئت قلت وحدة العقيدة . ذلك أن علاقة وحدة العقيدة بوحدة الأمة هي علاقة المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمات ، فعقيدة التوحيد ألهمت العرب فكرة الحرية الشخصية والدينية ، وحررت عقولهم من الوثنيات الموروثة ، وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لكانن من كان إلا للواحد الديان

ووحدة العقيدة الإسلامية كونت وحدة الأمة الإسلامية ، وحققت للإسلام انظموراً والآعلاء ، والمسلمين الاستخلاف في الأرض . وفي تاريخ الصدر الأول ، وتكوين دولة الإسلام ، شواهد ذلك وبيناته

وآفراق العقيدة من بعد وما نتج عنه من تبدل حالة المسلمين العقلية والنفسية والأخلاقية ، أفسد مقومات الحياة الإسلامية ، ورجع بالمسلمين من الإسلام إلى الجاهلية جهلاً وانقساماً وجوداً وموتهم ، وأطمع متوثة الشعوب أن يطفوا عليهم ويستعبدوهم في عقر أوطانهم

وهذا ما جعل جميع الحركات الإسلامية تصرف جهدها إلى هذا الأصل الأعظم وتوطيد بناء المجتمع الحديث عايه ، فعمدت - ولا تزال - إلى خطة ناجحة في توحيد العقيدة وفي تربيتها ، من أظهر مميزات : تشخيص حقيقة الإسلام

بتطهيره مما ألصقته به الفرق المبتدعة والمذاهب الضالة ، والدعوة إلى الاجتماع على القرآن اجتماعاً تبطل به هذه المذاهب قديمها وحديثها جملة ، وتتوحد العقيدة والأخلاق وجميع نظم الحياة ، وتعلو الأخوة الإسلامية ، وتكون حدود الإسلام هي وطن المسلمين ، إنما المؤمنون إخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ، وما وسَّح السلف الصالح وكان مبعث عزهم وعلوهم ، بسمع المسلمين في كل مكان وزمان ، ويكون مصدرراً لا ستمادة ما أضاعوه من المجد والسلطان

وقد آتت هذه الدعوة أكلها للطَّيب ، فزالت تلك الحدة التي اتسم بها أهل المذاهب الإسلامية القدماء ، وضعف الشعور بما كانوا يحسونه من الفوارق من قبل ، وظهرت في المجتمعات الإسلامية طلائع قوية للتسامح والتعاون على الخير في شؤون الحياة ، وخاصة في منازع الوطنية والاستقلال ، مع ما ينفثه الاستعمار من سمومه لتفريق الصفوف على يد أجراءه ووكلائه ، وبدا واضحاً من أثرها في توجيه جمهرة المسلمين في كل مكان نحو التكتل وجعل الإسلام الصحيح أساساً للجمع الحديث ، أن حركة الوحدة الإسلامية قد أصبحت من أهم الحركات في العالم الإسلامي اليوم

ولا يضعف من أمرها أفراد مبعثرون هنا وهناك يقفون على طرفيها ولا يندمجون فيها . وهؤلاء هم ستمطان من الناس : بعض عناصر الطبقة المترفة ونحوها ممن أمرتهم الشهوات وعبدوا المادة وفترت عزائمهم في دينهم وأهلوا أوامرهم ونواهيهم ، وعناصر أخرى جاهلة كل الجاهل يسمون أنفسهم مسلمين ولكنهم قد حيل بينهم وبين الإسلام الصحيح ولا يخرج دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة وأباطيل الوثنية . ومثل أولئك وهؤلاء في خضم موج بحمئة مليون نسمة لا يعتد بهم في الوزن الصحيح للقضايا الكبرى

أما الحركات الوطنية المحلية ، التي تسمى قومية أحياناً ، فهي شعور وطني

محض أرهف من حده الاستعمار السياسي والاقتصادي يتجه إلى إعادة تنظيم الجماعات ويستنفر القوى السكائمة لمقاومته والتخلص من جبروته . فهي بسبيل من وجهة الإسلام في هذا الشأن ، وليست عصبية بين الشعوب الإسلامية ، ولا هي كعقيدة الجنس النظرية التي قامت عليها حياة أوربة إلى عهد قريب

والمعروف من تاريخها وخصائصها أنها حركات تتضافر مع الإسلام في وجه الاستعمار ، في كل مكان ، وهي وحدات ، نعم وحدات أحدثها عدوان الدول الأوربية على العالم الإسلامي وأقنطاع كل دولة جزءاً منه تتحكم فيه ، لا أنها هي كذلك أو تريد أن تكون كذلك . وهي كلها تكافح هذه الدول الباغية لتتحرر من سلطانها ، ووجهتها جميعاً إلى الوحدة الكبرى الشاملة من غير شك ولا جدال والمراقبون الأوربيون يعترفون بأن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، وإن يبدؤوه مستخفين به ، لأنه يسمي القوة على هذه الوحدات المتفرقة ، ويلاحظون أن النزعات المنتشرة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامي للقوميات الجديدة ، وأن السعي لتقويتها هو من أهم الحركات في العالم الإسلامي اليوم

• ويقرر « جب » أن ثورة المسلمين على مبادئ الحضارة الأوربية التي تعارض الأخلاق ستدفع المثقفين منهم حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق السامية ، وأن بصروا على أصل الإخاء الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام

وان النزعة الإسلامية آخذة في القوة على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسي للطبقة الوسطى التي أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية . وكلما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة ، زاد سلطان أصول الإسلام على العلاقات السياسية

ويقول : « إن عاطفة الوحدة آتتدك دلالة محسوسة على وجودها بطريقة مطردة رائعة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامى من غير تعليق حامى حاد فى صحافة تذيع فى نصف آسية وإفريقية . وحين تأخذ هذه الحوادث شكلا خطيراً سواء فى سرا كش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو أندونيسيا نأتى قرارات الاحتجاج من كل فج وكلها متشابهة فى اللهجة بل فى العبارة . وليس عهدنا بعيداً بالجزء الأكبر من العالم الإسلامى حينما كان يخيّل لمن يراه أنه فى سبات عميق ، حتى حسبه بعضنا قد فقد الحياة . فأما اليوم فإن حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد عمر المختار تهز ما بين سرا كش وجاوة ، وكأنها صدمة كهربائية ، وتولد تياراً من السخط للمتهب . حقاً ، إن ذلك الشعور المتولد يحمّد سر بعاً ، ولكن تراكم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة ، وسيزيد العالم الإسلامى شعوراً بوجوده »

وأقول : إن هذا الشعور قد بلغ من نفوس الشعوب الإسلامية غايته ، فهم يشعرون أنه ليست هنالك شعوب إسلامية ، ولكن أمة إسلامية ، وطما حدود الإسلام

وبهذا الشعور بدأت الحكومات الإسلامية تحمل ما عنى أن يحدث بينها من وجوه الخلاف . ولا نحسب أن أمة من هذه الأمم الأوروبية تنازعت وأمة أخرى أمراً بينهما ، ثم استطاعت أن تنزل عن أحقادها وتزاتها ، أو تحسم نزاعها بزيارة يقوم بها ملكها لتلك الدولة أو يقوم بها وفد أهلى لا صبغة رسمية له ، كالذى يستطيعه ملوك المسلمين ووفودهم فى هذا العصر حين يقع بين دول الإسلام الحاضرة شىء من الخلاف كما يقع فى العادة بين الأخ وأخيه . ولست أذكر ناسياً حين أذكر كيف ضرب الملك « فيصل » المثل بنزوله عن تراته عند الملك « عبد العزيز السعود » فذهب إليه بصالحه وبشاوره فيما فيه خير العرب والمسلمين ، وكيف زار إمبراطور إيران لحسم بزيارته النزاع الذى نشب بين العراق وحكومته

على بعض الحدود ، أو كيف أستطاع وفد أهلى أن يحسم النزاع بين اليمن والمملكة العربية السعودية فيرجع الجيش السعودى عن « صنعاء » بعد ما طرق أبوابها بتذكيره المتخاصمين بالأخوة الإسلامية وحقوقها فى رقاب المسلمين

وهذه الوجهة إلى الوحدة الإسلامية التى تظهر اليوم عند المسلمين هذا الظهور القوى من إدراكهم التام لحقيقة الموقف الذى وُضعوا فيه ، تصحبها فى المجتمع الإسلامى فى الوقت نفسه ظاهرة رائعة من وجهة الإسلام إلى توثيق الصلة بينه وبين الأديان الأخرى . وهى وجهة قديمة معروفة من أصول الشريعة وسيرة رسول الإسلام والتاريخ الإسلامى ، يحسن بنا أن نقف عندها وقفة قصيرة ، ثم نعرض لما عراها من بعد ، ثم كيف عادت إلى الظهور فى هذا العصر ، لتسكون مناشئها بينة ، واثلاً يحسبها المتأثرون بالسياسات التى غرستها يد أوربة فى الشرق « مفارقة » لا تنسجم مع الاندفاع إلى الوحدة الإسلامية

فن المعلوم بالضرورة من الدين أن الإسلام إنما هو دعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق ، ورسالة مكلفة للشرائع السابقة ومعبدة للحقيقة الفطرية التى تستند إلى وحدة الله ، وتترتب عليها وحدة خلقه . يقول القرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ، ويقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ . ولم يختلف الرسول ﷺ ، مع أهل الكتاب إلا حيث كانت تنزيه الخالق موضع شك ، وقد كان كثير التسامح معهم رفيع الأدب فى مجادلتهم ، يقول القرآن : ﴿ وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ، ويقول فى النصارى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بَأَن مِّنْهُمْ قُتَيْبِينَ وَرَهَبَانًا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، ويقول فى الملل الكتابية : ﴿ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وعمل صالحاً ، فلمهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون .
وبالإيمان بالله وحده لا شريك له تتساوى عنده القبائل والشعوب والأديان
والرسل ، لقوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم
 وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون
 من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ﴾

وسيرة رسول الإسلام مع أهل الأديان جميعاً ، سيرة كلهم رفيق وإحسان
وعدل ، لأن دينه لا ينظر إلى غيره من الأديان إلا هذه النظرة الجامعة . وقد وضع
أساساً صالحاً عادلاً يحدد موقفه من أهلها جميعاً ، فقال : ﴿ فأستقاموا اسمكم
 فاستقيموا لهم ﴾ ، فما حاد عن هذا الأساس . وكان من بينات عطفه أن أحضر
إلى النصارى ، فتزوج من قبطية اسمها « مارية » كانت أم المؤمنين وأم ولده
« إبراهيم » ، كما تزوج من « صفية » وهي يهودية ، ولم تفقه فرصة دون أن يوصى
بأهل الكتاب خيراً

وفتح المسلمون البلاد التي كانوا يقطنونها فما أطاحوا بحقوق أحد منهم ، وكان
من أصول السياسة الإسلامية المساواة المطلقة بين المسلم وغير المسلم حتى في بيت مال
المسلمين ، فهو ليس بمقصود على معاونة المسلم وحده ، بل يُشرك فيه غير المسلم بلا
قيود ولا شرط . وفي قصاص « عمر بن الخطاب » من أبنه لأجل حق امرأة
مسيحية قبطية ، أكبر الشواهد على العدالة الإسلامية ، وفي قوله : « متى استعبدتم
الناس وقد ولدتمهم أمهاتهم أحراراً ؟ كل مقاصد الإسلام من الحرية والإخاء
والمساواة

ويعترف السير « توماس آرنولد » في كتابه « انتشار الإسلام » بأن
« الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، وأن جميع المذاهب
المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والانسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل

هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية
الدينية للجميع » ، ويقول : « تحت نظام من الأمن يكفل حرية الحياة والملك
والعقيدة الدينية ، تمتع المسيحيون - ولا سيما في المدن - بثروات ونجاح كبير في
عصور الإسلام الأولى ، فسكان منهم أرباب النفوذ الواسع في قصور الخلفاء »

ومن المؤسف حقاً أن قابليت أوربة هذه السماحة بالسماحة ، وحملتها سياساتها
« الميكيفيلية » في عهودها الطوال منذ العصور القديمة إلى هذا العصر على ارتكاب
موبقات وفظائع ومذابح لا حصر لها لم تعرفها وحوش الغاب ، وعبدت بوحدة
الشرق باسم حماية الامتيازات وحقوق الأقليات ، وأجرت من دماء المسلمين
وغير المسلمين أنهاراً ، حتى أصحرت نياتها للجميع عن الاستعباد والاستعمار ،
فأتجملت الغشوات عن الأبصار ، وأدركت الأقليات من الحقيقة ما أدركته
الأكثرية

لذلك كان على الإسلام في غمرة صراعه للاستعمار أن يصريح عن محضه ،
ويكشف عن وجهته ونيته غير متملق ولا مداهن . فوضع أمام الأعين المبصرة
والقلوب الواعية كتابه الصادق ، وتاريخه الناطق ، وشعوره السليم . فصدقته غير
مترددة ولا متشككة تصديقاً لا يتطرق الشك إلى عاطفته الخالصة النزوية ،
وأجابته على تسامحه وإخلاصه فأيدت قاعدة أعراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً في
مصر وسورية والعراق ، وظهرت رايات المتظاهرين في الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ،
وقد نسجت خيوطها أهلة وصلباناً ، وهال « مدام جهان دى فرانى Madame Jehan
d'Ivray » أن شهدت قسيسين أقباطاً يعظون في المساجد ، وعلماء من شيوخ
المسلمين يعظون في الكنائس طلبة من السوريين والموارنة والمسلمين ، وسيدات
مصريات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية ،
وقالت : إنها قد أصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب في هذه الديار

وقوى هذا التعاون في أوطان الهلال الخصيب ، وخاصة في فلسطين ، حيث ظهرت الصهيونية تريد الاستيلاء على المسلمين والمسيحيين الشرقيين معاً ، ويلاحظ « ج . كينغ » أن تجاوب المشاعر بين المسلمين والمسيحيين والشرقيين كلاً من الشعور الإسلامي والمسيحي يؤثر في تطور الآخر تأثيراً خفياً ، ولكنه قوى . وقد دهش « الأب ف . ت . بنارت » للعلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في العراق ، وأعجبه غاية الإعجاب ، وهو يتحدث عن المنشآت الإسلامية الحديثة التي تقص الصحف أمرها ، أن رأى المسلمين اليوم في العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون بمساعي بعض العلماء هذه الجمعيات الإسلامية في حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة

ونحن نرى في الجانب المسيحي الأدباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة ، ويهذبون بأدبهم المشاعر ، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون ، ولهم الآيات البينات في التفنى بحماسة الحضارة الإسلامية ، ومنهم من فنى في حب محمد رسول الإسلام ، مثل « مارون عبود » الذي أبت عروبه إلا أن يتيمن فيسمى أبنته باسم بانيتها الأول ، و « ليب الرياشي » الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين ، وأمثال شبلى ماطر والياس فاعور ونجيب نصار وجورج سلسي وغيرهم ، وكلهم أشاد في شعره ونثره بمحمد ، وأستعذب لغة القرآن

ولست أدري ماذا بقي بين هذه النفسية المنصفة الصافية وبين الإسلام ؟ ومن المسلمين من فتنهم أوربة عن دينهم ، فما التزموا فروضه وأوامره ، ولا ظفر منهم محمد ولا العروبة ولا حضارة الإسلام بكلمة إطاراء مع تمييزهم على نظرائهم بالبيان كذلك التقى الإسلام بالمسيحية في هذا العصر ، وأعادت مواقف أحدهما من الآخر إلى الأذهان مواقف العرب المسيحيين في عهد الفتوحات الأولى ، وقتالهم

في الصفوف الإسلامية انتصاراً لعروبتهم في مثل « واقعة الجسر » و « واقعة البويب » ، وعاد الطابع القديم الذي طبع به الإسلام الشعوب على التعاطف والتراحم والمودات كأحسن ما تطمع به الآمال

ونحن نعتقد أن هذه اللطائف من تصفية العقول وتزكية الضمائر والرغبة الصادقة في آتقاء وجهات النظر عند أصول الأديان جميعاً ، وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له ، ستفعل الناس حتماً - كلما ازدادوا وعياً وإدراكاً لأثر هذا الأصل في الحياة البشرية - إلى الأفق الرحب الذي يليق بالإنسانية أن تشغل بنظرتها إليه ، ألا وهو الإخاء الإنساني العام

فلا مريية في أن بنيان المدنية الإنسانية الحق إنما يقوم على هذين العمودين : الإيمان بالله ، والأخوة الإنسانية الجامعة في عالم واحد

والمأمل في الإسلام ، يجده حريصاً عليهما أشد الحرص . فهو قد دعا إلى التوحيد الخالص ، وبالغ في الدعوة إليه والتوكيد عليه كما بالغ في احترام رسالات الله التي دعت الإنسانية إلى هذا التوحيد ، ليكون الإيمان بالله واحداً في حقيقةته ومظهره ، ثم عطف على الروابط الإنسانية فركزها في أساس واحد ، هو بديهي جداً وغامض جداً في وقت واحد ، هو غامض لأن الناس أبتعدوا عنه كثيراً ، ولأنه يغيب عن الأذهان في غمرة هذا الصراع والتكالب بنوازع الجهل والعصبية ، وهو بديهي لأنه قريب من نفس كل إنسان لو فكر الإنسان في نفسه وانسأخ من نوازع الشريرة لحظة واحدة ، وهو بديهي فالناس جميعاً من نفس واحدة ، وانهم لذلك أسرة متشابكة الأجزاء متكافلة الأعضاء وليس بينهم إلا قرابة تحترم ، ورحم توصل . . . ولإبقاء هذا الأصل سليماً أيضاً أمر الإسلام بآتقاء الله فيه بالاحترام والتواصل والتعاون والمحبة ، لينتهوا جميعاً إلى عالم واحد لا يستعمل فيه قوى على ضعف كما نشؤوا من نفس واحدة ، وليعيشوا سعداء بالرحمة والحنان

والحب ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾

على هذا النحو أو على هذا الأساس صاغ الإسلام مدنيته ، وحقق جمع الأجناس وتقاهمها وتعاونها . وله في ذلك ماض مجيد مشهور . ويعترف رجال الدراسات الإسلامية من الأوربيين بأنه « لا توجد مدنية أخرى سُجل لها من النجاح في أن تجمع كثيراً من أجناس الإنسان المختلفة مع التسوية بينهم في المسكنة والعمل ونهضة الفرص - كما سجل للإسلام »

ويلاحظون « أن الجماعات الإسلامية العظيمة في إفريقية والهند واندونيسيا ، والجماعات الصغيرة في الصين ، والجماعات الصغرى في اليابان : كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والعقائد » ، ويرون أنه إذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ؛ لأن في يده إلى حد كبير حلّ المعضلة التي تواجه أوربة في علاقاتها مع الشرق ، وإذا أخذنا زاد الأمل زيادة لا حد لها في بلوغ نتيجة سليمة »

على هذا النحو صاغ الإسلام المدنية الإنسانية ، وعلى هذا النحو يعنى مفسكروه في هذا العصر بإظهار وجهته الكبرى إليها ، لا يألون في عرض حقائقها وبيان مناهجها والموازنة بين الأصول التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية والأصول التي تقوم عليها حضارة الغرب ، لينقلوها من التراث العقلي المجرد إلى الميدان العلمي الواقعي ، ولينقذوا هذه الإنسانية المعذبة التي تضطرب أحشاؤها بالرعب ، وتضطرم قلوبها بالأحقاد الآكلة ، ويُبدّ بعضها بعض أفضع ما يسمو إليه الخيال المنح من صور أدوات التقدم والإفناء ، حتى أصبح السلام حلاً لا سبيل إلى تحقيقه ، وأمنية معسولة واسكنها برق خُلب وصراب كُذوب

والواقع أن الأساس الذي تقوم عليه حضارة الغرب لا يمكن أن يُسلم إلى غير هذه النتائج ، وستظل الإنسانية تعاني أزماتها الحاضرة مادام هذا الأساس هو الذي يتصرف بالعقول والنفس ، ويخلق فيها الظلم القاتل إلى المال ، ويهيج التنافس والنضال للحصول عليه ، مسقطاً للعاني الإنسانية السامية والمثل الخلقية السكرية ، مثل الإيثار والمحبة والأخوة ، فلا يكاد يمسكها ، ولا تسكاد تملق به

ومن هنا كان في أوربة هذا التناحر الذي لم تعرف الإنسانية في عصورها الطوال أوحش ولا أضرى ولا أفثك منه ، حتى عمّ بلاؤه الأرض كلها ، لم يسلم منه القابعون في قُلل هملاب ولا المنعزلون في سهوب إفريقية

يصف الأستاذ « جود » الفيلسوف البريطاني المعاصر في كتاب له تطوره عما أنزلت إليه أوربة ، فيقول : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، ويقول : « إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة وطفولتنا الاجتماعية الخجلة ، نواجهه عند كل منعطف ومنعرج ، نحن نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ، ونرسل الصور بالبرق ، ونصب اللاسلكي في بيوتنا ، ونسمع في سيلان دقات (Big Ben) الساعة العظمى تضرب في لندن ، ونركب فوق الأرض والبحر وتحتها ، والأطفال يتحدثون على الاسلاك البرقية ، وآلات الكتابة صامتة ، وتملأ الاسنان من غير إجماع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (X-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتسكك وتنفى ، وبكشفت عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والنواصات تذهب إلى القطب الشمالي ، والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي . ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين ، ونجرح منهم تسعين ألفاً سنوياً » . قال : وقال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لعجائب حضارتنا - وكان بعض سواق

السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة ميل أو أربعمائة في ساعة على رمال Pendine ،
وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في عشرين أو خمسين ساعة (لا أذكر) -
« نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالسمك ،
ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض ! »

والإسلام حين ينظر إلى الغرب فيجد فيه هذا التفاوت العظيم بين أرتقائه
المادى هذا الأرتقاء الذى لا مطنح وراءه ، وبين انحطاطه فى الجانب الروحى هذا
الانحطاط الذى جعله يستعمل قواه بعقول الأطفال والوحوش كما يقول الفلاسوف
البريطانى ، ولم يعلمه كيف يمشى على الأرض كما يقول الفلاسوف الهندى . . . يأمرى
غاية الأسى على المصير الذى يوجه الغرب العالم كله إليه ، ويتوجع كل التوجع
أن يراه وهو يقطع أرحامه كما يقطع رحم الإنسانية فى كل مكان ، ولا تهالى دوله
الكبرى - فى سبيل نفسها وحدها - أن تنفق فتطرد العرب الفلسطينيين الأبرار
من موطن أجدادهم وآبائهم باليهود الأثمر الذين يمدونها بالمال إعانة لها على
إنتاج آلات التدمير والحرب ، أو أن تزيل أمة من الوجود بقذيفة واحدة ينطلق
منها مايون عزرائيل يتخطون فى لحظة أرواح ملايين من الشيوخ العجاف
والأوانس اللطاف والأطفال الملائكة الأبرار ، فلا تبقى على بناء مشيد ولا زرع
قائم ولا حيوان من هذا الحيوان الأعجم الذى يؤسس الغربيون جمعيات الرفق به
من أذى الإنسان !

والإسلام بين توجهه وأساذه ، يتحرك ويتحفز ، وبه من الغرب أغلال ،
ليحطمها ، ولكن لا تحطم من يريد أن يثار وينتقم ، لأن العفو عنده أساس
معاملاته ، وهو أقرب للتقوى ، بل تحطم من يغار على كرامته أن تذال ، وعزته
أن تذلل ، ويقتله أن تحذر وتنوّم وتبعد عن واقع الحياة ، وقدرته أن تسكب
وتحد بنوازع الأثرة والطفان . . . ليمود مرة ثانية ، فيصوغ إرادته بنشر روح

الإخوة الإنسانية فى عالم واحد ، دعامة نظام روحى يكون أساساً للنظام التهذيبى
وأساساً لقواعد الخلق والعمل ، لا يضحى فيه بشيء من أصول الأخلاق فى سبيل
التنظيم الاقتصادى ومعاملة الأفراد والجماعات

ويؤمّن نسخر هذه المصنوعات الجداد للخير وحده وللشركه ، بعقول الحكماء
والإنسانيين لا بعقول الأطفال والوحوش ، وتعلم أوربة حين تطير فى السماء كيف
تمشى على الأرض ، ثم تسير ويسير ركب الإنسانية إلى سعادته المنشودة فى وئام ،
وينعم الشرق والغرب جميعاً بنعمة السلام ، ويكون الدين كله لله

المطبعة السليمانية